قواعد فهم السنــة النبويــة

أ.م.د. إسماعيل عبد عباس الجميلي
التدريسي في كلية الإمام الأعظم الجامعة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

فقد اهتم سلف الأمة بالسنة النبوية اهتماماً بالغاً من حيث حفظها، وضبط ألفاظها، وفحص رواتها، وبيان غوامض ألفاظها، والأهم من ذلك كيفية فهمها واستنباط الأحكام الشرعية منها؛ ليتحقق للعبد الامتثال والاستجابة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كي لا يصيبه الوعد القرآني ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[سورة النور:٦٣]، وبما أن السنة النبوية –في الغالب–وظيفتها: التفسير والبيان؛ لذا وضع العلماء رحمهم الله تعالى قواعد لفهم السنة النبوية تعصم مراعاتها الفهم من الوقوع في الزلل، ولما كانت هذه القواعد كثيرة لا يمكن أن يستوعبها هذا المقال؛ لذا فسأتكلم فيه –ان شاء الله– عن قاعدة واحدة من قواعد فهم السنة النبوية، وإن أمد الله في عمري وأعانني فسوف أكتب ما بقي من قواعد الفهم في مقالات قادمة إن شاء الله تعالى.

القاعدة الأولى: التمكن من علوم اللغة العربية:

معلوم أن اللغة العربية من علوم الآلة، ولا يمكن أن يستغني عنها مفسر ولا فقيه، بل من العلماء من جعلها من الشروط الرئيسة في الاجتهاد، واشترط في المجتهد أن يكون علمه باللغة العربية كعلم الخليل وسيبويه، وأنا لا أشدد في ذلك ولكن هناك قدر واجب على طالب العلم أن يتقنه، وهذا الواجب يتحتم على من أراد دراسة السنة النبوية؛ إذ لا يمكن لدارس السنة النبوية أن يفهمها فهماً صحيحاً إلا باللغة العربية، ومن دونها يفسد الدارس أكثر مما يصلح، وحادثة سيبويه الذي ترك

درس الحديث واشتغل باللغة خشية اللحن حاضرة في الأذهان، ولربما من دون معرفة اللغة يكذب الدارس على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يعلم؛ لذا يقول الأصمعي رحمه الله: إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحوَ أن يدخل في جملة قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه: « **مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ** » لِأَنَّهُ صلى الله عليه وسلم لَمْ يكن يلحن، فمهما رويت عنه ولحنت فيه كذبت عليه، هذا لدراس السنة النبوية، فكيف بمن أراد أن يفهمها ويستنبط منها الأحكام الشرعية لمستجدات الأمة ونوازلها؟؛ لذا يقول الإمام شعبة رحمه الله: مثل الذي يتعلم الحديث ولا يتعلم النحو مثل البرنس لا رأس له، ويقول الإمام ابن الصلاح رحمه الله: فحق على طالب الحديث أن يتعلم من النحو واللغة ما يتخلص به من شين اللحن والتحريف ومعَرَّتِهِمَا؛ لذا وجب على المشتغل بالسنة النبوية أن يتعلم طرفاً من لسان العرب وأن يتقن القواعد اتقاناً يحفظه من اللحن؛ ولذلك قال الحافظ العراقي في ألفيته على الحديث:

وَلْيَحْذَرِ اللَّحَّانَ وَالْمُصَحِّفَا ... لَى حَدِيْثِهِ بِأَنْ يُحَرِّفَا
فَيَدْخُلاَ فِي قَوْلِهِ: مَنْ كَذَبَا ... فَحَقُّ النَّحْوُ عَلَى مَنْ طَلَبَا

ولبيان أهمية اللغة في فهم السنة النبوية أمثلة كثيرة أذكر منها مثالاً واحداً وهو ذكاة الجنين: من قوله صلى الله عليه وسلم في السنن: ((ذكاة الجنين ذكاةُ أمه)) فقد اختلف العلماء في الجنين الذي ذبحت أمه وخرج ميتاً هل يؤكل أم لا؟ على قولين:

الأول: إن الجنين الذي ذكيت أمه ذكاة شرعية فقد حل أكله؛ لأنه مذكى بذكاة أمه، وبه قال أبو يوسف ومحمد من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة' إلا أن يوجد حياً فيذكى.

الثاني: إنه لا يؤكل إلا أن يخرج حياً فيذبح، لأنه ميتة وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾، وبه قال أبو حنيفة وزفر والحسن بن زياد وابن حزم، ووجه الاختلاف: إن لفظ (ذكاة) الثاني ورد مرفوعاً كالأول وورد منصوباً مما أحدث خفاء في الدليل فلم ينص على المراد منه صراحة بل بقي محل خلاف وموضع تأويل.

- والإعراب على رفع لفظة (ذكاة) الثانية تكون خبراً للمبتدأ، فيصبح المعنى: ذكاة أم الجنين ذكاة له، ويكون هذا الحديث مخصص لعموم آية تحريم الميتة، قال الخطابي في معالم السنن: ((فيه بيان جواز أكل الجنين إذا ذكيت أمه وإن لم يحدث للجنين ذكاة)).
- وعلى رواية النصب: تكون لفظة (ذكاة) منصوبة بنزع الخافض كأنه قال: كذكاة أمه، قال الطيبي في شرح المشكاة: ((ويروى الحديث الأول بالرفع والنصب فمن رفع جعله خبر المبتدأ الذي هو ذكاة الجنين، فتكون ذكاة الأم هي ذكاة الجنين، فلا يحتاج إلى ذبح مستأنف، ومن نصب كان التقدير: ذكاة الجنين كذكاة أمه، فلما حذف الجار نصب، أو على تقدير: يذكى تذكية مثل ذكاة أمه، حذف المصدر وصفته، وأقام المضاف إليه مقامه، فلا بد عنده من ذبح الجنين إذا خرج حياً)).

وبهذا تظهر أهمية اللغة العربية في فهم السنة النبوية فقد رأينا كيف أن حركة اعرابية غيرت معنى بل غيرت حكماً شرعياً وجعلت ما فهمه العلماء من الرفع حلالاً في النصب حرام؛ لذا يجب على المحدث أن يولي اللغة العربية اهتماماً كبيراً ليفهمها فهماً صحيحاً، ويستنبط منها الأحكام الشرعية لنوازل الأمة ومستجداتها، والحمد لله رب العالمين.